الفصل الثامن عشر

دراسة المجتمعات البدوية والقروية والحضرية

obeikandl.com

سبق أن ذكرنا أن الانثروبولوجيا الاجتماعية علم حديث ، وأنها لم تظهر الا فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا • كما أشرنا كـذلك الى أن النصف اثانى من القرن التاسع عشر قد شاهد كتابات عديدة عن مناطق مختلفة من العالم قدمها لنا الرحالة والمبشرون ورجال الادارة والتجار • ولقد كان الكثير من هذه الدراسات يتسم بالسطحية ، بينما كان البعـض الآخر منها يتسم بالدقة والامانة •

ونتيجة لعدم اهتمام العدد الاكبر من علماء النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنزول الى الميدان لملاحظة الظواهر الاجتماعية بأنفسهم ، فاننا نجد أن الدراسات الحقلية التى قام بها هؤلاء العلماء كانت قليلة • فهناك دراسة مورجان (الايروكوا) ودراسة بواس (الاسكيمو) ودراسة بعثة جامعة كمبردج (جزر مضايق توريس) •

ومنذ بداية القرن العشرين ، نلاحظ أن كثيرا من العلماء قد نزلوا الى الميدان ، وقاموا بدراسات حقلية عديدة عن المجتمعات البدائية•ومن الامثلة على ذلك نذكر دراسة ريفرز (التودا) ودراسة رادكليف براون (الاندمان) ودراسة سـلجمان (قبائل جنوب السـودان) ودراسـة مالينوسـكى (التروبرياند) ودراسة ايفانز بريتشارد (الازاندى والنوير) ودراسـة ريموند فيرث (تيكوبيا) ودراسة بريستيانى (الكبسيجس) ودراسـة فورتس (التالنسى) ودراسة وورنر (المورنجن) •

ولكن : ما هى الاسباب التى دعت علماء الانثروبولوجيا الاجتماعيـة الى الاهتمام بدراسة المجتمعات البدائية ؟

يرى مالينوسكى أن الشعوب البدائية تتغير بسرعـة ، ومن ثم فانه

يجب على العلماء أن يسارعوا الى دراستها قبل فوات الاوان • وهو يرى أن ذلك له فائدته من الناحيتين العلمية والعملية :

«The study of the rapidly vanishing savage races is one of those duties of civilization-now actively engaged in the destruction of primitive life-which so far has been lamentably neglected. The task is not only of high scientific and cultural importance, but also not devoid of considerable practical value, in that it can help the white man to govern, exploit and "improve" the native with less pernicious results to the latter».

(B. Malinowski, Crime and Custom in Savage society p. xi.).

ويرى وورنر أن المجتمعات البـــدائية تعتبر بالنسبة للانثروبولوجى الاجتماعى بمثابة المعمل الذى يمكن أن يختبر فيه أفكاره وطرائقه فى البحث الاجتماعى :

«The more simple types of communties with their smaller populations, less numerous social institutions, less complex ideational and technical systems, provide the social anthropologist with the equivalent of a laboratory wherein to test his ideas and research techniques. By investigations of these simple societies he is able to equip himself better foi the analysis of more Complex forms of human society». (W. L. Warner, The Social Life of A. Modern Community. p. 3).

كما يذكر لنا ايفانز بريتشارد أن هناك عوامل مختلفة قد دفعت العلماء الى تركيز جهودهم لدراسة المجتمعات البدائية • فقد اهتم بدراستها علماء القرن التاسع عشر لاعتقادهم بأن ذلك سوف يساعدهم فى بحوثهم عن أصل النظم الاجتماعية ، كما اهتم بها البعض الآخر من العلماء لاعتقادهم بأنها تعرض النظم الاجتماعية فى أبســـط أشكالها ، وأن المنهج الســـليم يوجب البدء بدراسة النظم الاكثر بساطة ثم الانتقال بعد ذلك لدراســـة النظم

الاكثر تعقيدا • وعلاوة على ما تقدم ، فان المجتمعات البدائية تتغير بسرعة ، ومن الواجب دراستها قبل فوات الاوان[١] •

الا أننا نلاحظ أن العلماء قد اتجهوا — خلال الربع الثانى من القرن العشرين — الى عدم قصر مجال دراستهم على المجتمعات البدائية • ففى سنة ١٩٣٩ نجد أن و• ل• وورنر ينادى بأن مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية يشمل المجتمعات البدائية والمجتمعات القروية والحضرية • ومما هو جدير بالذكر أن وورنر قد قام فعلا بدراسة مجتمع بدائى فى أستراليا (٢٦ — ١٩٢٩) ، كما درس أيضا مجتمعا حضريا فى أمريكا بعد عودته من أستراليا • وفى سنة ١٩٤٤ نجد أن رادكليف براون يقرر أن **الانثروبولوجيا الاجتماعية لا تقصر مجال دراستها على المجتمعات البدائية فقط ، بل انها تدرس كل المجتمعات الانسانية • كما نجد أيضا أن ايفانز بريتشارد يؤكد لنا أن الانثروبولوجيا الاجتماعية تدرس كل المجتمعات الانسانية :**

«But though we give chief attention to primitive societies I must make it clear that we do not restrict our attention to them. In America, where social anthropology is better represented in the universities than in the British Empire; a number of important studies of more advanced societies have already been made by American or American-trained anthropologists—in Ireland, in Japan, in China, in Mexico, in Canada, and in the United States itself». (2)

---

(١) E. E. Evans - Pritchard, Social Anthropology and Other Essays (The Free Press, New York, 1966), p.p. 8—9.

(٢) E. E. Evans - Pritchard, Social Anthropology and Other Essays, (The Free Press, New York, 1966) p.p. 9.10.

ومن الامثلة على الدراسات التى قام بها العلماء فى المجتمعات القروية والحضرية نذكر دراسة جون امبرى (سوهى مورا) ودراسة آرنسبرج للفلاحين فى أيرلندة ودراسة دوبى (شاميربت) ودراسة روبرت لند وهيلين لند (ميدلتاون) ودراسة وورنر وزملاؤه (يانكى سيتى) •

وهذا ويهمنا أن نشير الى أن انتقال العلماء للدراسة فى هذا الميدان الجديد له مزاياه • ومن ذلك نذكر :

١ ــ اللغة :

تحتاج الدراسة فى المجتمعات البدائية ، فى الاغلب ، الى دراسة لغات غريبة بالنسبة للباحث • ولم يكن ذلك أمرا هينا فى جميع الاحوال •

٢ ــ مشقة السفر والاقامة :

وهناك أيضا مشقة السفر الى تلك المناطق البدائية النائية ثم الاقامة فى ظروف قد تختلف كثيرا عن موطن الباحث من حيث الحالة الصحية أو من الناحية الجغرافية • وقد أوضحت لنا الدراسة كذلك أن بعض الباحثين قد عانوا كثيرا من شعور الاهالى بالتعالى أو بالكراهية نحوهم • (مثل : ايفانز بريتشارد فى مجتمع النوير) •

٣ ــ الوثائق والاحصاءات :

يستطيع الباحث الانثروبولوجى فى مجتمعنا الحديث أن يستمد الكثير من المعلومات من الوثائق والاحصاءات الموجودة (مثل كتب التاريخ ــ السجلات الحكومية ــ تعدادات السكان ••• الخ) • وهذه الوثائق والاحصاءات تساعده فى تكوين الصورة السليمة لموضوع دراسته ، كما أنها تساعده ، أيضا ، فى عقد مقارنات بين ماضى ذلك المجتمع وحاضره •

أما فى المجتمعات البدائية ، فالباحث عادة كان يعمـل دون أن تكون لديه سجلات عن المـاضى أو احصاءات عن الحاضر •

٤ ــ الاستعانة بالمتخصصين :

فى المجتمعات الحضرية ، يستطيع الباحث أن يرجع الى المتخصصين (رجال الاقتصاد أو رجال القانون مثلا) لاستشارتهم أو لاشراكهم معه فى أبحـاثه • أما فى المجتمعـات البدائيـة ، فان ذلك كان يعتـبر أمـرا عسـيرا •

كما يهمنا أن نشير كذلك الى أن العلماء الذين انتقلوا لدراسة المجتمع الحديث قد قابلتهم مصاعب جمة نذكر منها : ضخامة المجتمع من الناحيـة العددية ، عدم التجانس ، وجود تراث مكتوب ضخم ووسائل اتصال عديدة (مثل الراديو والتليفزيون والسينما والصحافة) ، التقدم التكنولوجى • ولقد أدت هذه الضخامة فى العدد وهذا التعقيد الى ادخال وسائل جديدة خاصة بالبحث الانثروبولوجى • فهناك ، مثلا ، نظام بحث الفريق (مثلا فى ميدلتاون ويانكى سيتى) • ولمـا كان الفريق يحتاج الى الاقامـة فى مجتمع البحث ، فان الامر قد أصبح يتطلب تمويلا كبيرا •